

التحرير والتنوير

وكان ابتداء نزولها بالمدينة لما صح عن عائشة أنها قالت : ما نزلت سورة البقرة وسورة النساء إلا وأنا عنده . وقد علم أن النبي A بنى بعائشة في المدينة في شوال لثمان أشهر خلت من الهجرة واتفق العلماء على أن سورة النساء نزلت بعد البقرة فتعين أن يكون نزولها متأخرا عن الهجرة بمدة طويلة . والجمهور قالوا : نزلت بعد آل عمران ومعلوم أن آل عمران نزلت في خلال ثلاث أي بعد أحد فيتعين أن تكون سورة النساء نزلت بعدها . وعن ابن عباس : أن أول ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران ثم سورة الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء فإذا كان كذلك تكون سورة النساء نازلة بعد الأحزاب التي هي في أواخر سنة أربع أو أول سنة خمس من الهجرة وبعد صلح الحديبية الذي هو في سنة ست حيث تضمنت سورة الممتحنة شرط إرجاع من يأتي المشركين هاربا إلى المسلمين عدا النساء وهي آية (إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات) الآية . وقد قيل : إن آية (وآتوا اليتامى أموالهم) نزلت في رجل من غطفان له ابن أخ له يتيم وغطفان أسلموا بعد وقعة الأحزاب إذ هم من جملة الأحزاب أي بعد سنة خمس . ومن العلماء من قال : نزلت سورة النساء عند الهجرة . وهو بعيد . وأغرب منه من قال : إنها نزلت بمكة لأنها افتتحت ب (يا أيها الناس) وما كان (يا أيها الناس) فهو مكى ولعله يعني أنها نزلت بمكة أيام الفتح لا قبل الهجرة لأنهم يطلقون المكى بإطلاقين . وقال بعضهم : نزل صدرها بمكة وسائرهما بالمدينة . والحق أن الخطاب ب (يا أيها الناس) لا يدل إلا على إرادة دخول أهل مكة في الخطاب ولا يلزم أن يكون ذلك بمكة ولا قبل الهجرة فإن كثيرا مما فيه (يا أيها الناس) مدني بالاتفاق . ولا شك في أنها نزلت بعد آل عمران لأن في سورة النساء من تفاصيل الأحكام ما شأنه أن يكون بعد استقرار المسلمين بالمدينة وانتظام أحواله وأمنهم من أعدائهم . وفيها آية التيمم والتيمم شرع يوم غزوة المريسيع سنة خمس وقيل : سنة ست . فالذي يظهر أن نزول سورة النساء كان في حدود سنة سبع وطالت مدة نزولها ويؤيد ذلك أن كثيرا من الأحكام التي جاءت فيها مفصلة تقدمت مجملة في سورة البقرة من أحكام الأيتام والنساء والموارث فمعظم ما في سورة النساء شرائع تفصيلية في معظم نواحي حياة المسلمين الاجتماعية من نظم الموال والمعايشة والحكم وغير ذلك على أنه قد قيل : إن آخر آية منها آية الكلاله هي آخر آية نزلت من القرآن على أنه يجوز أن يكون بين نزول سائر سورة النساء وبين نزول آية الكلاله التي في آخرها مدة طويلة وأنه لما نزلت آية الكلاله الأخيرة أمروا بإلحاقها بسورة النساء التي فيها الآية الأولى . ووردت في السنة تسمية آية الكلاله الأولى آية الشتاء وآية الكلاله

الأخيرة آية الصيف . ويتعين ابتداء نزولها قبل فتح مكة لقوله تعالى (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) يعني مكة . وفيها آية (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) نزلت يوم فتح مكة في قصة عثمان بن طلحة الشيبني صاحب مفتاح الكعبة وليس فيها جدال مع المشركين سوى تحقير دينهم نحو قوله (ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما فقد ضل ضلالا بعيدا) الخ وسوى التهديد بالقتال وقطع معذرة المتقاعدين عن الهجرة . وتوهين بأسهم عن المسلمين مما يدل على أن أمر المشركين قد صار إلى وهن وصار المسلمون في قوة عليهم وأن معظمها بعد التشريع جدال كثير مع اليهود وتشويه لأحوال المنافقين وجدال مع النصارى ليس بكثير ولكنه أوسع مما في سورة آل عمران مما يدل على أن مخاطبة المسلمين للنصارى أخذت تظهر بسبب تفشي الإسلام في تخوم الحجاز الشامية لفتح معظم الحجاز وتهامة . وقد عدت الثالثة والتسعين من السور نزلت بعد سورة الممتحنة وقبل سورة (إذا زلزلت الأرض) .

وعدد آيها مائة وخمس وسبعون في عدد أهل المدينة ومكة والبصرة ومائة وست وسبعون في عدد أهل الكوفة ومائة وسبع وسبعون في عدد أهل الشام .